

## قراءتان في كتابات المؤرخين في مناهجهم وأهدافهم

أقدم تحت هذا العنوان قراءتين :

الأولى : في كتاب من سنيوبوس إلى فردينان لوط .

الثانية : في فصل نشره أرنولد توينبي بمناسبة انتهائه من كتاب له بعنوان « ماذا حاولت أن أصنع ؟ »

### أولاً : كتاب سنيوبوس إلى فردينان لوط

( وهذا أهديه للدكتور ثابت الفندي أستاذ الفلسفة  
في كلية الآداب بجامعة الاسكندرية )

سنيوبوس مؤرخ أستاذ ، مدرس قبل كل شيء ، أهم ما نشر له ، كتابه في التاريخ السياسي لأوروبا المعاصرة ، وله كتاب آخر « التاريخ النزيه للأمة الفرنسية » وعنايته بالتدريس أهم صفاته ، وقد ألف لخدمة الطلاب مشتركاً مع لانجلوا « مقدمة للدراسات التاريخية » ، نُشر لأول مرة سنة ١٨٩٨ . وله كتاب آخر في المنهج التاريخي أقل شهرة في جامعاتنا على الرغم من أهميته ، هو كتاب « المنهج التاريخي مطبقاً على العلوم الاجتماعية » .

والخطاب الذي سأعرض له ، وجهه سنيوبوس من عزلة في إقليم بريتانى إلى صديقه فردينان لوط المؤرخ المشهور لغارات القبائل المتبربرة ونهاية العالم القديم . وتاريخ الكتاب ١٠ إلى ٢٩ يونية في ١٩٤١ أى كتبه في فترة الهزيمة والاحتلال الألماني . والكتاب كتاب مؤرخ ، لا يحفل بالزائل احتفاله بالباقي ، ليس ذلك لأن نكبة فرنسا كانت شيئاً ضئيلاً ، لا ، إنما هي نكبة ولكنها تزول . فلا ينبغي لها أن تملك عليه لبه ، فكتب من عزلة في الريف لصديقه وزميله كتاباً طويلاً في التاريخ ودراسة التاريخ ومنهج التاريخ . كان ذلك - كما قلت - في ١٩٤١ ، وتوفي سنيوبوس في العام التالي ( ٢ مايو

(١٩٤٢) . وبقى الكتاب في أوراق لوط ، ولما مات هذا الأخير سلمت أرملته الكتاب إلى تلميذه فافتييه فنشره ، في المجلد العاشر بعد المائتين من المجلة التاريخية الفرنسية ( عدد يوليه - سبتمبر ١٩٥٣ ) واستغرق من تلك المجلة اثنتي عشرة صفحة . وهو مهم لأنه ثمرة خبرة طويلة وتفكير عميق من جانب مؤرخ كبير .

قال إن التاريخ - قطعاً - علم ، ذلك لأننا نسمى علماً أية حصيلة من المعلومات نحصل عليها بتطبيق منهج محقق على دراسة طائفة من الحقائق أو الوقائع من نوع واحد . ووثائق المادة التاريخية تتعلق ببنى الإنسان منتظمين في جماعات ، وهي وقائع حدثت في أزمنة متعاقبة ماضية .

والتاريخ من العلوم الوصفية . أي ليس من العلوم العمومية ، وهذه ( ومن أمثلتها - الفيزيكا أو البيولوجيا ) تعمل لاكتشاف قوانين . أما العلوم الوصفية فمادتها حقائق أو وقائع مفردة . وتهتم العلوم الوصفية بتوزيع تلك الأفراد في المكان ( النبات مثلاً ) أو في المكان والزمان ( الحيولوجيا مثلاً ) . والتاريخ يختلف عن سائر العلوم الوصفية في أن من أفراد مادته ما هو حسي ( كعمل من أعمال الإنسان مثلاً ) ومنها ما هو نفسي ( عاطفة من العواطف الإنسانية مثلاً ) .

وانتقل سنيوبوس من هذا إلى عمل المؤرخ في الآثار الحسية والشهادات الشفوية والمكتوبة ، مبيناً بالتفصيل الطرق والآفات التي تعيب عمل المؤرخ والتاريخ كله وعرض في أثناء ذلك لكل ما يشغل بال الذين تحدثوا في قضايا المنهج التاريخي . وخصوصاً قضية اليقين .

وإذا شاء السادة الفلاسفة المشتغلون بتلك القضايا وصفاً دقيقاً لعمل المؤرخ فأمامهم هذا النص المهم من انشاء مؤرخ ثقة بعد خبرة نصف قرن من الزمان .

**ثانياً : أرنولد توينبي يتحدث عما حاول أن يصنع**

قال توينبي في فصل نشرته مجلة *International Affairs* ( المجلد الحادي والثلاثون . العدد الأول : فبراير ١٩٥٥ ) .

قال : منذ سنة ١٩٢٧ وأنا أعمل في كتابي هذا « دراسة التاريخ » وكان قد مضى عليّ إذ ذاك ثلاث سنوات وأنا أعمل في الدراسات السنوية التي كان ينشرها المعهد الملكي للشئون الدولية . والعملاق - دراستي للتاريخ ودراساتي السنوية لشئون العالم المعاصر - سارا جنباً إلى جنب وخدم كل منهما الآخر . فكيف يستطيع إنسان أن يتكلم عن أحداث زمانه دون أن يربطها على وجه ما بتاريخ الإنسانية ، وكيف يستطيع أن يفهم ماضي الإنسانية دون أن يستخدم للوصول إلى ذلك ما تعلمه من دراسة معاصريه عن الإنسانية التي مضت . ولا بد - مثلاً - لمن يريد أن يبعث حمورابي واختاتون وهاموس والبوذا من أن يدرس معاصريه من أمثال غاندي ولينين وروزفلت ، مثلاً .

هذا إلى أن الحقبة من الزمان التي عشتها كانت فترة انقلاب تلم في أحوال الإنسان وخصراً ذلك الانقلاب الذي أصاب مركز « الغرب » في العالم فجعله شيئاً آخر غير الذي كان . وكل من عاش في هذه الحقبة وتبع أموراً يسهل عليه أن يفهم الكثير من أمور الماضي . نضيف إلى ذلك ما كشفت عنه جهود الأثريين في مختلف أقطار العالم من أحوال وأطوار لم تكن شيئاً مذكوراً . وهذا ما أثار في نفسي الرغبة في أن أقف وفي أن أنظر وفي أن أكون لنفسي صورة من ذلك الماضي الإنساني . فكتابي كان لشفاء ما في نفسي . وقد أحس غيرة بنفس الرغبة . فكانت لذلك الغير محاولات . وسيكون لمن سيأتي بعدنا محاولات ، وسيتناول غيرنا ما عملناه بالتعديل والتصحيح والمراجعة . وستحل كتب محل كتب .

وبعد ، فإن الحقبة التي نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم « العصر الحديث المتأخر » ومدته قرنان ونصف قرن من الزمان ، مبدؤه حوالي سنة ١٧٠٠ وهو عصر السيطرة الأوروبية على العالم وعصر « سيطرة الطبقة الوسطى » على أوروبا ، ومن ثم على شعوب العالم .

ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدل المفكرون ، وبصفة خاصة

مفكر و القرن الثامن عشر ، النظرية العامة للتاريخ العام . وهي نظرية الأديان السماوية وقوامها حصر ذلك التاريخ بين بداية هي خلق الله العالم ، ونهاية هي قيام الساعة .

وتجد أشهر تعبير عن تلك النظرية في المقال الحليل عن تاريخ العالم للحبر الخطير بوسيه Bossuet . قلت إن فلاسفة القرن الثامن عشر عدلوا تلك الصورة . حاولوا أن يحدفوا منها الخلق والساعة . وأوجدوا للتاريخ العام صورة أخرى - صوروه حركة تجرى في خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو اسبانيا أو انجلترا أو الأمة التي ينتسب إليها الكاتب . وهي صورة لا يستطيع أن يدبر أصحابها مكاناً لهند أو لصين أو حتى لروسيا أو لأمريكا . ولا تجد فيها مكاناً لبعض حضارات الماضي ، في أمريكا الوسطى أو في الأناضول .

والواقع إننا لا نستطيع أن نقبل حركة تاريخية تجرى في خط واحد ، إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ، ففي التاريخ تتعاصر الحضارات ، أما فعلاً وإما فلسفياً ، في تفكير المؤرخ . هذا والعلوم الإنسانية الآن ( نظرية المعرفة ، علم النفس ، الانثروبولوجيا ، الاجتماع . الاقتصاد ) تبادل المعلومات وتستخدمها في عرض الظواهر الاجتماعية عرضاً معقولاً مفهوماً . ولا بد من أن يأتي اليوم الذي ندخل فيه التاريخ في نطاق تلك الدراسات الاجتماعية فيفيد ونفيد . وقد حاولت أن أطبق ذلك المنهج العلمي في دراستي وأن أسير به بقدر ما يستطيع من السير .

أقول هذا عامداً ، فللسير بالمنهج العلمي حدود . فإني أو من مثلاً بأن اصطداماً يقع بين شخصيتين إنسانيتين لا يمكن أبداً التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج ، فهو لا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعراً أو إلهام أنبياء لا يخضع أيضاً لأي قانون : فهي ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التي رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنساني .

وفي أثناء عملي في هذا الكتاب - منذ سنة ١٩٢٧ . تغيرت نظرتي للأشياء فأصبح « للدين » المكانة الأولى في تصويري للتاريخ العالمي . وليس هذا الدين هو الدين المسيحي الذي نُشئت عليه . بل أصبحت أعتقد أن لادين بعينه يمكن أن يدعى لنفسه أنه وحده الدين الحق ، وأصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها في المكانة التي أتصورها للدين في المستقبل ، على أني أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آباءه وأجداده ، وهذا بشرط ألا ينفي عن الأديان الأخرى ما يمكن أن تسديه لخير الإنسانية .

انتهى الكتاب ، ولكن الموضوع لا يمكن أن ينتهي ، فالأثرى يحفر ويكشف والعالم النفساني يغوص ويتعمق في باطن النفس ، وما دام لدى طالب التاريخ شيء من فهم وذكاء ولب فلن يعوزه العمل .

**محمد شفيق غربال**